Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

# تعريف بالكتاب

قيل عن شكسبير انه وصف « الانسان الصميم » فى جميع ابطاله وبطلاته من الملوك والملكات الى أبناء السبيل وبناته ، فخرجت شخوصه من قلمه « أناسى » على طراز آدم وحواء ، نراهم فى كل رجل وكل امراة على تباعد الشقة واختلاف الزمن ، فلا نستطيع ان نحصرهم فى عصر تاريخى ولا فى طبقة اجتماعية ولا فى مكان محدود ، لأنهم اذا انحصروا هنالك بالمظاهر والأزياء خرجوا من وراء الحدود الى آفاق الانسانية الخالدة فبرزوا لنا وراء العصور والطبقات والأوطان احياء آدمية كما خلقها الله .

قيل هذا وقيل ما هو أعجب منه وأدل على قدرته وعلى سليقته المطبوعة .

قيل انه وصف الخلائق الانسانية كما خلقها الله ووصف «غير المخلوقات » أيضا كما كانت توجد فى هذه الدنيا لو خلقها الله ، ولم يكن كل حظها من الوجود أنها بعض مخلوقات الخيال .

فهذه العبقرية الخلاقة قد صورت ولائد الخيال من الأرواح والأطياف والحور والجنة والعفاريت على الصورة التى تطابق الواقع لو أنها لبست كساء اللحم والدم ولم تلبث حيث هى بين أطواء عالم الظلال والأحلام .

بهذا المعنى يقال عن خلائق الخيال أنها تطابق الواقع أو لا تطابقه وانما تصدق أو لا تصدق — كما قلنا فى التعريف بشكسبير « بمقدار تعبيرها عن خوالج النفس التى توحيها ومقدار براعتها فى الرمز الى معانيها ، وقديما علم الناس أن ما يتخيلونه من الأطياف والغيلان انما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هى اشباح موهومة كاشباح الاحلام التى يعبر بها النائم عن أشواقه وأوهامه ويخلع عليها صورها وأشكالها على عادة الخيال فى تمثيل المعانى بالمحسوسات . فاذا قيل عن خليقة من هذه الخلائق الخيالية انها صادقة فانما يقال انها خيال صحيح التعبير ورمز صادق الدلالة ، وهذا هو المقصود بتطبيق البحوث النفسية على خلائق الخيال ... أو كما قال أديسون ، وهو من كتاب أوائل القرن الثامن عشر : « اننا نحس شيئا من الروعة والصدق فى كلمات أشباحه وأرواحه وسحرته لا نملك معه الا أن نحسبها كائنات طبيعية . وليست لدينا كائنات نرجع اليها فى تحقيق صورها ، ولكننا لا نرى محيصا من الاعتراف بأنها لو وجدت لتكلمت وتصرفت كما مثلها » .

ولقد أصاب الكاتب اللبق الألمعى فى عصره ، ولو أنه كتبه مرة أخرى فى هذا العصر لاستطاع أن يقول : أن شكسبير قد استوحى وعيه الباطن فى أعمق أعماقه فأخرج منه تلك الأطياف كما ترتسم فى بديهة النوع الانسانى منذ احساسه بالمشاهدات والمغيبات ، فاذا كان وصفه للانسان وصفا صادقا يحيط بعصور التاريخ وتقاليد الجماعات ، فوصفه لخلائق الخيال أصدق من ذلك وأعمق ، لأنه يروى عن عالم الأحلام فى اليقظة والمنام ، وهو أوسع جدا ، وأعمق جدا ، من عالم التاريخ وعالم الاجتماع .

وروايته هذه ـ حلم ليلة صيف ـ احدى أعاجيبه التى أضاف بها الى عالم الحس طائفة كبيرة من عالم الأحلام ، وحقق بها « وجود » هذا العالم الذى نلجأ اليه لنفلت من قيود اليقظة ونفعل ما تعوقنا الضرورات أن نفعله ونحن أيقاظ مقيدون بقيود العرف والواقع ، أو لعله حقق بوثباته فى حلم ليلة الصيف ما قاله هو نفسه عن دنياه ودنيانا : انها قد نسجت من المادة التى تنسج منها الأحلام .

ويحسب النقاد المؤرخون أن شكسبير كتب هذه الرواية فى عنفوان صباه ولما يجاوز الرابعة والثلاثين أو الخامسة والثلاثين ، وربما أخطأ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النقاد المؤرخون تقدير عمر المؤلف بالسنة والشهر حين تأليفه هـذه الرواية الفنية حتى بما احتوته من أوصـاف الهرم والموت ، ولكن الحقيقة التى لا شك فيها أنها وضعت لتكون حلما من أحلام اليقظة وملهاة تسقط عن اللاهين بها مؤنة الجد وكلفة العقل وأعباء العرف والتقليد ، وقد سميت بهذا الاسم لكى تتسع لأشواط المرح والطرب التى اتسعت لها أيام عيد الصيف أو عيد « يوحنا المعمدان » كما سمى فى القرون الوسطى فانه كان عيدا طبيعيا دينيا يعود مع انتقال الشمس قبل نهـاية شـهر يونيو من كل سنة ميلادية ، وكان أبناء القرون الوسطى وبناتها يمثلون فيه كل ما اصطلح الأقدمون على تمثيله خلال أعياد الصيف بعد مطلع الربيع ، وقد جرى بعض حوادث الرواية فى شهر أبريل وبعضها فى شـهر مايو وجاءت بقيتها مقرونة باسم العيد فى موعـده الموعود ، فكلها اذن أحـلام فى موسم الأحلام ، ورجالها ونساؤها كأرواحهـا وأطيافها نسيج من هذه الأحلام ، لا يفرقون بين ما يصنع فى اليقظة وما يصنع فى المنام .

ولقد نجحت عبقرية شكسبير أجمل النجـاح فى احاطـة الحياة كلها خلال الرواية بجو الأحـلام وجو الحرية البريئة التى تصاحب « الرؤيا » ولو اختلطت بأشباح الموت والخيبة والكنود ، فان العالم الذى يفيض بالحيـاة الحالمة قلما يحس بثقل الكوارث كما تحملها كواهل الأحيـاء المتيقظين المسئولين ، ولكنها كلها أشباح تطير وظلال تتحول ، ولا يمكث منها الشبح الأسـود المخيف الا بمقدار ما يمكث زميله الشبح الزاهر اللطيف ، ولا يكرثنا فيها الحب المصدوق الا بمقدار ما يكرثنا أخوه الحب المكذوب ، فانها جميعا تعمل كما يعمل السحرة أو المسحورون ، وتتصرف بين الهوى والسلوى كما يتصرف شارب الجرعة المسحورة أو الترياق الشافى من السحر : شىء غير معقول يتبعه شىء غير معقول ، وتنتهى ـ آخر المطاف ـ تلك النهاية التى تجعلها كلها معقولة منتظرة ، بل تجعلها كلها مفهومة مطلوبة ، بالغة السحر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحلم ومشيئة الطلسم والترياق ، وفضل هـذه اللغـة أنها تترجم الأعاجيب والأساطير فتجوز من عالم الخيال الى عالم الحس فى ثياب المألوفات والمشاهدات .

هذه هى شفاعة الرواية وشـفاعة كل رواية من قبيلها وفى مثل موضوعها : شفاعتها التى تسوغ كل خرافاتها وخوارقها أنها تتكلم بشفرة الأحلام وتسوق العقول باختيارها ورضاها الى قبول ما لم تكن تقبله بغـير تلك الشفرة المتفق عليهـا ... فهى لا تمسخ الواقع ولا تشوهه ولا تبدله أو تحوله عن معانيه ، وكل ما تصنعه أنها تترجم تلك المعانى ترجمة صحيحة متفقا عليها الى حين ، أو الى موعد ... كأنما يقول الناظرون اليها بعضهم لبعض وهم يتغامزون ويبتسمون : دعونا نفهم الواقع بهذا المعنى وعلى ضوء هذا القاموس الى أن نتيقظ ونفتح أعيننا ، وسنرى بعد ذلك أننا لم نخدع أنفسنا ولم يخدعنا أحد ، لأننا كنا نعلم جميعا أننـا نترجم الواقع بلغة الخيال ، وأننا نائمون حالمون ، وأننـا سنصحو بعد قليـل ... ولكن لننس ذلك الآن ، مختارين .

منى أن تكن حقـا تكن أحسن المنى
والا فقـد عشنا بهـا زمنا رغدا

وقد قال سـيمون فى حواره التـالى مخاطبا زميله بريزون : « أظن أن سبب قوة المسرحية يرجع الى الخاصة الموسيقية لشعرها وما تشتمل عليه من أفكار ، وهى تروى لنـا ثلاث قصص فى تآلف وانسجام موسيقى يجعلك تغض الطرف عما يصادفك بها من أجـزاء قاتمة مكدرة .. »

وهذا تفسير صحيح لقوة المسرحية وجمالها ، أو لتفسير جمالها فى قوتها الساحرة ، فان تنسيق وقائعها المرحـة المفرحة ووقائعها القاتمـة المكدرة ، قد ينسجم باختيارنا وعلمنـا كما تنسجم ألحان الموسيقى التى تترجم الكلام والصوت الى شعور ونغم ، ونحن نسمع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النغم ونعلم أنه غير الكلام ، ولكننا نعلم أنه منقول الى لغة الموسيقى التى نخترعها عمدا لنحول بها ألفاظنا من أصوات مهملة الى أصوات منسوقة ، ولولا ذلك لم نخترع الموسيقى ولم نستمع اليها .

وان خيال الشاعر ليصنع فى ترجمة الواقع ما تصنعه الموسيقى فى ترجمة الحديث من ألفاظ الى ألحان . ولكن على شرط واحد فى الحالتين وذلك هو شرط السليقة الصادقة فى تعبير الخيال عن الطبيعة الانسانية وهى تسترسل على سجيتها فى أحلامها ، وتعبير الألحان عن النفس الناطقة حين تنطق بالكلمات وحين تنطق بالنغمات .

وها هنـــا الفارق بين الفن والفوضى ، وبين الشفرة المتفق عليها والتحريف الذى لا يرجع الى علامات ولا قواميس .

وهنا تلك الوحدة الفنيـــة وذلك الانسجام المطبوع الذى سماه الأستاذ سيمون « بالخاصة الموسيقية » ... وهى خاصة قد تمثلت هنا على أجمل صورها فى هذا الحلم من أحلام عبقرية شكسبير .

**عباس محمود العقاد**